

الكامل في التاريخ

تأليف

المؤرخ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد
أبي عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني
المعروف بابن الأثير
(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ)

حَقَّقَهُ وَأَعْتَنَى بِهِ

الدكتور عبد السلام تدمري

أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة اللبنانية
عضو الهيئة العربية العليا لإعادة كتابة تاريخ الأمة
في اتحاد المؤرخين العرب

الجزء العاشر

عصر الحروب الصليبية

(من سنة ٥٨١ - إلى سنة ٦٢٨ هـ)

الناشر

دار الكتاب العربي

MIDDLEBURY COLLEGE LIBRARY

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام

لقد بقيتُ عدّة سنين مُعرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه [رجالاً] وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مُت قبل حدوثها، وكنْتُ نسيّاً منسياً، إلّا أتيت حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيتُ أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا^(١) الفعل يتضمّن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقّت^(٢) الأيام والليالي عن مثلها، عمّت الخلائق، وخصّت المسلمين، فلو قال قائل: إنّ العلم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وإلى الآن، لم يُبتلوا بمثلها؛ لكان صادقاً، فإنّ التواريخ لم تتضمّن ما يقاربها ولا ما يُدانيتها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصّر بني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدّس، وما البيت المقدّس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد، التي كلّ مدينة منها أضعاف البيت المقدّس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإنّ أهل مدينة واحدة ممّن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعلّ الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض^(٣) العالم، وتفنّى الدنيا، إلّا بأجوج ومأجوج.

وأما الدّجال فإنه يُبقي على من اتّبعه، ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنّة، فإنّا

(١) في (ب): «إن هذا».

(٢) في (أ): «عقمت».

(٣) في الأوربية: «يتعرّض».

لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعمّ ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استديرته الرياح، فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغَرَ وبلاساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر، مثل سَمَرْقَنْد وبُخارى وغيرهما، فيملكونها، ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها ملكاً، وتخريباً، وقتلاً، ونهباً، ثم يتجاوزونها إلى الرّي، وهمذان، وبلد الجبل (وما فيها من البلاد)^(١) إلى حدّ العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأزانية، ويخربونها، ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج إلا الشريد النادر^(٢) في أقل من سنة، هذا ما لم يُسمع

بمثله.

ثم لما فرغوا من أذربيجان وأزانية ساروا إلى دَرْبَنْد شِزْوان فملكوا مُدنه، ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان، واللكز، ومن في ذلك الصُّقع من الأمم المختلفة، فأوسعهم^(٣) قتلاً، ونهباً، وتخريباً؛ ثم قصدوا بلاد قفجاق، وهم من أكثر التُّرك عدداً، فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتر عليها، فعلوا هذا في أسرع زمان، لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير.

ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى عَزَنَة وأعمالها، وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكزمان، ففعلوا فيه مثل فعل هؤلاء وأشد.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرِّخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة، إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً، إنما رضي من الناس بالطاعة؛ وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه، وأكثره عمارة وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة، في نحو سنة، ولم يبق أحد في البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقّعهم، ويتربّب وصولهم إليه.

ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإنهم معهم الأغنام، والبقر، والخيول، وغير ذلك من الدواب، يأكلون لحومها لا غير؛ وأما دوابهم التي يركبونها

فإنها تحفر الأرض منزلاً لا يحتاجون إياها وأما ديانتهم يأكلون جميع الدواب المرأة يأتيها غير وا ولقد بُلي الأسم، منها هؤا يستعظمها كل من ومنها خروج

وملكهم ثغر دمييا لطف الله تعالى ومنها أن ا على ساق، وقد والمسلمين نصراً ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِشَيْءٍ﴾

إتما استقام لهم وسبب عد وأفناهم، وبقي يمنعهم، ولا من خروجهم إلى البذكر

في هذه ال جبال طمغاج من وكان الس

(١) سورة الرعد
(٢) سورة الأنفا

(١) من (أ).
(٢) في (أ): «النافر».
(٣) في الأوربية: «فأوسعهم».

فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج.

وأما ديانتهم، فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يُحرّمون شيئاً، فإنهم يأكلون جميع الدواب، حتى الكلاب، والخنزير، وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه.

ولقد بُلي الإسلام والمسلمون في هذه المدّة بمصائب لم يُبتلَ بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر، قبحهم الله، أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كلّ من سمع بها، وستراها مشروحة متصلة، إن شاء الله تعالى.

ومنها خروج الفرنج، لعنهم الله، من المغرب إلى الشام، وقصدهم ديار مصر، وملكهم نجر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم، وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة.

ومنها أنّ الذي سلّم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة على ساق، وقد ذكرناه أيضاً، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فإنّ الناصر، والمعين، والذّاب، عن الإسلام معدوم، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(١)، فإنّ هؤلاء التتر إنّما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع.

وسبب عدمه أنّ خوارزم شاه محمّداً كان قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها، وأفناها، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم، ولا من يحميها ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾^(٢)، وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم إلى البلاد.

ذكر خروج التتر إلى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه

في هذه السنة ظهر التتر إلى بلاد الإسلام، وهم نوع كثير من الترك، ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين، وبينها وبين بلاد الإسلام ما يزيد على ستّة أشهر. وكان السبب في ظهورهم أنّ ملكهم، ويسمى بجنكزخان، المعروف

(١) سورة الرعد، الآية ١١.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٤٢.

بَتَمْرَجِين^(١)، كان قد فارق بلاده وسار إلى نواحي تُرْكِسْتَان، وسيّر جماعة من التّجّار والأترّك، ومعهم شيء كثير من الثّقرة والقنْدُز^(٢) وغيرهما، إلى بلاد ما وراء النهر سَمَرْقَنْدَ وبُخارى ليشتروا له^(٣) ثياباً للكسوة، فوصلوا إلى مدينة من بلاد التّرك تُسمّى أوترار، وهي آخر ولاية خوارزم شاه، وكان له نائب هناك، فلما ورد عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال وإنفاذه إليه، فقتلهم، وسيّر ما معهم، وكان شيئاً كثيراً فلما وصل إلى خوارزم شاه فرّقه على تجار بخارى، وسَمَرْقَنْدَ، وأخذ ثمنه منهم.

وكان بعد أن ملك ما وراء النهر من الخطا قد سدّ الطرق عن بلاد تُرْكِسْتَان وما بعدها من البلاد، وإنّ طائفة من التتر أيضاً كانوا قد خرجوا قديماً والبلاد للخطا، فلما ملك خوارزم شاه البلاد بما وراء النهر من الخطا، وقتلهم، واستولى هؤلاء التتر على تُرْكِسْتَان: كاشغار، وبلاساغون وغيرهما، وصاروا يحاربون عساكر خوارزم شاه، فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها. وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك ممّا لا يُذكر في بطون الدفاتر^(٤):

فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ فَظَنَّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَيْرِ
فلما قتل نائب خوارزم شاه أصحاب جنكيزخان أرسل جواسيس إلى جنكيزخان لينظر ما هو، وكم مقدار ما معه من التّرك، وما يريد أن يعمل، فمضى الجواسيس، وسلكوا المفازة والجبّال التي على طريقهم، حتّى وصلوا إليه، فعادوا بعد مدّة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم، وأنّهم يخرجون عن الإحصاء، وأنّهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة، وأنّهم يعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم، فندم خوارزم شاه على قتل أصحابهم وأخذ أموالهم، وحصل عنده فكّر زائد، فأحضر الشهاب الخيوفيّ، وهو فقيه فاضل، كبير المحلّ عنده، لا يخالف ما يشير به، فحضر

- (١) في طبعة صادر ٣٦١/١٢ «تموجين» والتصحيح من: سيرة جلال الدين ٣٩، وتاريخ جهانكشاي للجويني - طبعة ليدن ١٩١١ - ص ٢٦ و ٢٨.
- (٢) في طبعة صادر ٣٦١/١٢ «القندر» بالراء المهملة، والتصحيح من: تاريخ الإسلام ٣٧.
- (٣) في (أ): «به».
- (٤) في (ب) زيادة: «والأوراق».

عنده، فقال له فعله، وذلك أنّ فقال له:

عامّاً، فإنّه يج العساكر إلى ج فنكون هناك، وعساكره قد مسّ فجمع خُ

يوافقوه على رأ الجبال والمضاي ونهلكهم فلا ينه فبينما هم خوارزم شاه، و فإني واصل إليك

وكان جنّ تلك البلاد، وأز كما أصاب الخ شاه أمر بقتل ر إلى صاحبهم (يقول لك: أنا فعلت بأصحابك وتجهّز خُ السير، فمضى،

- (١) في الأوربية:
(٢) في نهاية الأوربية:
(٣) في الأوربية:
(٤) من (ب).

عنده، فقال له: قد حدث أمر عظيم لا بدّ من الفكر فيه وأخذ^(١) رأيك في الذي فعله، وذاك أنّه قد تحرّك إلينا خصم من ناحية الترك في كثرة لا تُحصى.

فقال له: في عساكر كثيرة ونكاتب الأطراف، ونجمع العساكر، ويكون النفير عاماً، فإنّه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس، ثمّ نذهب بجميع العساكر إلى جانب سيحون، وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الإسلام، فنكون هناك، فإذا جاء العدو، وقد سار مسافة بعيدة، لقينا ونحن مستريحون، وهو وعساكره قد مسهم النَّصَبُ والتعب.

فجمع خوارزم شاه أمراءه ومنّ عنده من أرباب المشورة، فاستشارهم، فلم يوافقوه على رأيه، بل قالوا: الرأي أن نتركهم يعبرون سيحون إلينا، ويسلكون هذه الجبال والمضايق، فإنّهم جاهلون بطرقهم، ونحن عارفون بها، فنقوى حينئذٍ عليهم، ونهلكهم فلا ينجو منهم أحد.

فبينما هم كذلك إذ ورد رسول من هذا اللعين جَنْكِرْخَان معه جماعة يتهدّد خوارزم شاه، ويقول: تقتلون أصحابي وتجارتي وتأخذون مالي منهم! استعدّوا للحرب فإنّي واصل إليكم بجمع لا قبيل لكم به.

وكان جَنْكِرْخَان قد سار إلى تُرْكِسْتَان، فملك كاشغار^(٢)، وبلاساغون، وجميع تلك البلاد، وأزال عنها التتر الأولى، فلم يظهر لهم خبر، ولا بقي لهم أثر، بل بادوا كما أصاب الخطأ، وأرسل الرسالة المذكورة إلى خوارزم شاه؛ فلمّا سمعها خوارزم شاه أمر بقتل رسوله، فقتل، وأمر بحلق لحي^(٣) الجماعة الذين كانوا معه، وأعادهم إلى صاحبهم جَنْكِرْخَان يخبرونه بما فعل بالرسول، ويقولون له: إن خوارزم شاه (يقول لك: أنا)^(٤) سائر إليك ولو أنّك في آخر الدنيا، حتّى أنتقم، وأفعل بك كما فعلتُ بأصحابك.

وتجهّز خوارزم شاه، وسار بعدّ الرسول مبادراً ليسبق خبره ويكبسهم، فأدمن السير، فمضى، وقطع مسيرة أربعة أشهر، فوصل إلى بيوتهم، فلم ير فيها إلاّ النساء

(١) في الأوربية: «فأخذ».

(٢) في نهاية الأرب ٢٧/٣٠٥ «كاشغر».

(٣) في الأوربية: «لحا».

(٤) من (ب).

ن التّجّار
راء النهر
ك تُسمّى
ه الطائفة
، فبعث
م، وسيّر
بُخارى،

ستان وما
طا، فلمّا
التتر على
زم شاه،
إلى بلاد

، الخبر
جَنْكِرْخَان
واسيس،
لّة طويلة
الله على
م، فندم
فأحضر
، فحضر

جهانكشاي